

كوكب الشرق المطربة
السيدة أم كلثوم رائدة الغناء العربي

السيدة أم كلثوم تعتبر وريثة المطربة سرين التي كانت إحدى الجاريتين الاتين أهداهما الموقس حاكم مصر للرسول الأعظم سيدنا محمد بن عبد اله عليه الصلاة والسلام ، فتزوج إحداهما "ماريا" وأهدى الثانية "سرين" إلى سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه فاصبحت أبرز مطربة في المدينة المنورة وتخرج عليها جهابذة الفنانين العرب من أمممثال "جميلة مولاة الانصار" وعزة الهيلاء" وسعيد بن مسيح" و"طويس" وغيرهم الذين اخذوا عنها الغناء ولكن لم يصلوا الى ما وصلت اليه أم كلثوم حسبما سنبينه فيما بعد .

فالسيدة أم كلثوم من مولايد آخر القرن الماضي أو بداية هذا القرن وقد استمعت الى تجويد القرآن الكريم وانشاد القصائد النبوية وهي طفلة من والدها الشيخ إبراهيم البلتاجي وتمكنت من حفظ نصيب من القرآن مع أخيها خالد بكتاب الشيخ "عبد العزيز حسن" وتمكنت أيضا من تجويد ما حفظته ثم التحقت برفقة والدها وأصبحت منشدة للقصائد والنواشيع الدينية التي تتسم بإعادة غناء الث من الشعر عدة مرات مع التصرف المرتجل بتغيير أجزاء من اللحن وهكذا برزت ملامح صوتها القوي الرخيم الباعث للنبرات الصوتية التي تحسن الجمل اللحنية

وتكسيها عوامل الطرب والتأثير وتلك موهبة من الله عز وجل يؤتيها لمن يشاء من عباده.
وصادف أن حضر إحدى حفلاتها عميد مغني القصيد العربي الشيخ أبو العلاء محمد
فتبين له أنها أحسن من أدى الغناء من النساء وأنها متشعبة بالروح الفنية الأصلية مع قوة
صوتية تبوؤها لتكون أحسن مطربة عربية ، فأقترح على والدها الشيخ إبراهيم السماح لها
بالانتقال إلى القاهرة ليتبناها فنيا حتى تترع على عرش الغناء بدون منازع فاقتنع والدها بذلك
وسمح لها بالسفر مضحيا بما سيصيب فرقته من وهن وضعف يكون له من وهن وضعف يكون
له مفعول على تقلص مروده المادي .

أنت المطربة الشابة ألى القاهرة سنة 1923 ومكنها الشيخ محمد أبو العلاء من التعرف
على الفنانين والفنانات المشهورين وأسمعها اسطوانات سلامة حجازي، وعبد الحي حلمي والشيخ
يوسف المنيلوي ودر بها على أشهر المقامات الموسيقية من خلال ما أنتجه لها من قصائد كان
يرتجل ألقانها من قبل وهي روائع الفن العربي نذكر منها (1): وحقك أنت المنى والطلب "
للإمام الشيخ الشبراوي في مقام السيكاه هزام (2) و"يا آسي الحي ؟ لإسماعيل صبري باشا في
مقام الراست

(3) و" مثل الغزال نظرة " للصفى الحلي في مقام الراست أيضا . (4) و"الصب تقضحه عيونه
"للشاعر الشاب آنذاك أحمد رامي في مقام البياتي .

وبالجملة فقد انتج لها الشيخ محمد أبو العلاء مجموعة قصائد تعرفنا على عشرة منها سجلتها
على اسطوانات غرامفون ووا ديون بين سنتي 1924 و 1931 كانت لها خير زاد من الأدب ومن
الموسيقى العربيين . وفي تلك الفترة تعرفت على الشاعر الشاب أحمد رامي الذي تعلق بها مدى
حياته وكانت أول قصيدة يقولها فيها قدمها لها يوم عادت من سفرها إلى رأس البر أثناء حفل لها
بكزينو البوسفور سنة 1924 من أبياتها :

صوتك هاج الشجو في مسمعي * * وأرسل المكنون من أدمعي

ويختمها بقوله :

غني وخلي الدمع يروي الذي * * قد جف من نفسي ولم ينبع

لعل في صوتك أحياء ما * * دفنت من حبي ومن مطمعي

وتعرفت في نفس الفترة على الدكتور أحمد صبري النجدي الذي لحن لها ما يناهز الخمس عشرة قطعة منها ثالث قصائد

1- لي لذة في ذلتي وخصوعي " في مقام أنها وند

2- "مالي فتنت بلحظك الفتاك " ، في مقام البياتي

3- "كم بعثنا من النسم سلاما " ، في مقام الحجاز

واقترحت معه باب الأغاني والطاقيق في الحان شجية رائعة كما بدأت معه تعلم عزف العود الذ أكملته مع الأستاذ محمد القصبجي الذ تعلق بها طوال حياته وعلمها القامات والإيقاعات ولحن لها مجموعة من روائعه من أشهرها مونولوج "ن كنت أسامح وأنسى الاسية في مقام الماهور النادر الاستعمال حينذاك، الذي زادها شهرة وتشجعت لاقتحام الحفلات العمومية والخاصة وكانت تختها الأول يتركب من الأساتذة محمد القصبجي بالعود ، ومحمد العتاد بالقنون وسامي شوا بالكمان مع ضابط إيقاع وكانت تبرز معهم تعزف على العود في بعض الأغاني وكانت آخر مرة تبرز بالعزف على العود في الفل الذ قدمته في نطاق المؤتمر الأول للموسيقى العربية سنة 1932 التي تعزز فيها التخت بعازف الناي الأستاذ جورج سعد وعازف الفيولونتشلو وغنت فيه قصيدها الرائع "أفديه ان حفظ الهوى "في مقام البياتي وأقدم لكم صوري هذه الحفلة واستمر الاستاذ محمد الفصبجي مع السيدة أم كلثوم ملاحنا من سنة 1924 إلى سنة 1948 مع أغنيات فيم "فاطة " ثم عازفا ممتازا في فرقته الى وقاته - رحمه الله سنة 1966 وفي سنة 1930 لحن لها الموسيقىار "داود حسني" ومكنها من أداء الدور المصري الذ يشتمل على قسط وافر من الارتجال في التصرف سواء بإعادة أجزاء م الغناء أو بتكرار " آهات" تبرز جمال صوت المغني وقدرته الصوتية وتمكنه من المقامات والإيقاعات العربية وقد سجلت له أحد عشر دوا نذكر منها

1/ شرف حبيب الفل لاحمد رامي في مقام الحجاز كار 2/ حسن طبع اللي فتتي لكامل الخلي ، في مقام الراست 3/ كل ما يزداد رضى قلبك علي " في مقام العراق وذلك على سبيل المثلا لا الحصر

ومن أبرز من ساعدوها عند مقدمها للقاهرة الشيخ زكرياء الذ كانت تعرفت عليه سنة 1919 عندما كانت تشارك بالانشاد ضمن فرقة والدها فساعدوا كثير وعرفها بشيوخ الفن مثل الشيخ على محمد والشيخ أحمد نذا وبدأ يلحن لها سنة 1931 بطقطوقة اللي حبك يا أهناه ثم تهامل تلحينه لها بمجموعة هامة من الادوار ، مثل أمتي الهوى يجني سو ، على مقام السيكاه هزام و آه ياسلام في مقام راحة الأرواح ، من الأغاني والطاقيق نذكر منها :

1/ اكتب لي لمحمود بيرم التونسي ، في مقام البياتي واملك منها تسجيلا عند تعلمها لها من الملحن 2/ العزول فياق ورايق لحسن بحي في مقام العراق 3/ الور جميل لمحمد بيرم في مقام

الهزم 4/ أنا في انتظارك لمحمود بيرم في مقام الحجاز 5/ هو صحيح الهوى غلاب لمحمد بيرم في مقام الصبا وغيرها كثير ورائع .

وبعد هؤلاء العمالقة طلح في سماء السيدة أم كلثوم شاب قال عنه أستاذه في المعهد الموسيقى الشرقي الشيخ على الدرويش أنه أكيد سيصبح أحد رواد الموسيقى العربية ورائع رايتها ، هذا الشاب هو الأستاذ رياض السنباطي الذي كانت أولى روائعه لأم كلثوم "النوم يداعب عيون حبيبي " لا حمد رامي في مقام الكردي وذلك سنة 1936 وأنداك أحست السيد أم كلثوم أن عودها قد استكمل قوته في التمكن من المقامات الموسيقية التي أصبحت تتصرف فيها وترتل عليها سليقة الشيء الذي لم تصل إليه سواها من المطربات قبلها وأنتج لها الملحنون أغان ممتازة جمعت بني القصيد والدور والطقوقة في آن واحد تمكنا من التردد والتصرف مبرزة بذلك جانبا كبيرا من الارتجال الفني الذي يعتبر أهم عنصر في الموسيقى العربية والشرقية ويتجاوب معه الجمهور بالتأوه وبذكر اسم "الله" أو بالتصفيق عندما يستمع إلى جملة غنائية تمس قلبه وعواطفه ومشاعره فيستمتع بها ويشعر بالنشوة التي ترفعه عن درجة المادة وتجعله يحب لإخوانه ما يحبه لنفسه وهي أعلى مراتب الإنسانية، ورأت أنه حان الوقت لترتبط موعدا محددًا مع جمهورها الذي ربه على حب الموسيقى العربية الأصلية فكان موعد الخميس من كل شهر الذي أبرزت فيه : أنا في انتظارك " و "حبيبي تسعد أوقاتنا " أهل الهوى " والأمل" لمحمود بيرم التونسي وزكرياء احمد سنة 1944. و"رق الحبيب" لا حمد رامي ومحمد القصبجي سنة 1944، و"سلوا قلبي" و " نهج البردة و" سلوا كؤوس الطلا" و "ولد الهوى فالكائنات ضياء " للأمير الشعراء أحمد شوقي والموسيقار رياض السنباطي وجميعها أنتجت سنة 1946 وكاد السنباطي ينفرد بكوكب الشرق في الإنتاج لها من سنة 1949 إلى سنة 1960 واعتنت مطربتنا الكبيرة بالسينما وأنتجت عدة أشرطة أبرزت فيها مقدرتها الفنية في أغان لحنها كل من الأستاذاة الكبار : محمد القصبجي ، ورياض السنباطي، والشسخ زكرياء أحمد وهذه الأشرطة هي :

(1) "وداد" سنة 1936 ويقال إنها كانت تحضر جميع عروضه لشغفها بالموضوع

وللحرص على استرجاع مصاريفها بما سبب لها تعبال شديدا في عينيها .

(2) " نشيد الأمل" سنة 1936

(3) "دنانير" سنة 1939 (جارية البرامكة التي تحدث قرار الخليفة العباسي هارون الرشيد

المانع لرتاء البرامكة بشعر فقامت برثاء سيدها بنوع جديد من الغناء لا تنطبق عليه التفعيلات الشعرية الخليلية وكانت تختم جملها الغنائية بكلمة " ياموليا " ولذا سمي هذا النوع بالموال ، واختصت به مصر فيما بعد .

4) عائدة سنة 1946 وفيها غنت أوبرا عايدة بالاشتراك مع المطرب إبراهيم حمودة وقد اشترك في تلحينها الأستاذان مع القصبجي ورياض السنباطي .

5) سلامه وغنت فيها الموشح الوحيد الذي أدته وهو "يا بعيد الدار" للعباس بن الأحنف

6) وأخير "فاطمة" وفيها آخر ما لحن الموسيقار محمد القصبجي

وأثري السنباطي التراث الكلتومي بعشرين قطعة غنائية جديدة بان تدرس في المعاهد الموسيقية لترسيخ الهوية الفنية العربية في الأجيال الصاعدة نذكر منها لاحمد رامي : (1) "رباعيات الخيام" (2) "يا ظالمني" (3) "ذكريات" (4) "عودت عيني" (5) "دليلي احنار" (6) "هجرتك" (7) "حيرت قلبي" (8) "أقبل الليل"

ولاحمد شوقي : أغنية النيل والقصائد الدينية ولعبد المنعم السباعي "أروح لمين" وبيرم التونسي

"شمس الأصيل" ولاحمد فتحي "قصة الأمس" ولعبد الفتاح مصطفى : (1) لسه فاكر (2) لا

ياحبيبي (3) أقول لك إيه ولإبراهيم ناجي الأطلال ولعبد الوهاب محمد : حسيبك للزمان

مع الموسيقار محمد عبد الوهاب

تعانقت عبقرينا أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب لا نتاج أول أغنية كانت كلماتها من تأليف

أحمد شفيق كامل ، وكان من المفروض أن يلحنها الصديق الأستاذ كمال الطويل الذي تنازل عن تلكالكلمات ليتم الحدث وقدمت في أول خميس من شهر فبراير سنة 1964 وهي أغنية "أنت عمري" وقد صادف أن حضرت في ذلك الشهر جلسات الإعداد لتأسيس المجمع العربي

للموسيقى بجامعة الدول العربية مع ثلثة من الأخوان على رأسهم الأستاذ الكبير الدكتور محمد احمد الحفني، وأقيم لنا حفل تكريم حضره الموسيقار محمد عبد الوهاب وكوكب الشرق أم كلثوم وأمير الكمان الأستاذ سامي شوا الذي كان مشلولاً مع جملة من أبرز العازفين وقد أخذ كل من العملاقين يشكر مساهمة الآخر في الإنتاج وإذا الأستاذ سامي يناديني ، صالح ، سا صالح ويقول بصوت جهوري سمعه كل الحاضرين بيكذبو على بعض وكررها مرتين وتطلعون على صوري تسجيل هذا الحدث الهام وصورة الاستقبال، وتواصل تعاونهما الفني المثمر في إنتاج الأغاني التالية :

(1) " على باب مصر" مع كامل الشناوي سنة 1964، (2) "أنت الحب" مع احمد رامي

سنة 1965 ، (3) "أمل حياتي" مع أحمد شفيق كامل سنة 1965 (4) "فكروني" مع عبد الوهاب

محمد سنة 1965 ، (5) هذه ليلتي مع جورج جرداف سنة 1968 ، (6) "أصبح عندي الآن

بندقية : مع نزار قباني سنة 1969 (7) "دارت الأيام" مع مأمون الشناوي سنة 1970 (8) أغدا

ألقاك " مع الهادي آدم سنة 1971 ، (9) "ليلة حب" لاحمد شفيق كامل سنة 1973

وأثناء هذه المدة غنت للأستاذ محمد الموجي " للصيح حدود" وأسأل روحك"، كما غنت للشيخ سيد مكاوي " يا مسهرني " وللاستاذ بليغ حمدي الحب كده" وأنا وأنت ظلمنا الحب " و " أنساك ياسلام و " حب إيه اللي أنت جاي تقول عليه" و "طول عمري بخاف م الحب " و" فات الميعاد و" نسبت النوم وأحلامه "

وتوفيت رحمها الله في الرابع من فبراير سنة 1975، وتأثر لوفاتها الجماهير العربية في جميع الأقطار وراثاها الشعراء والمسؤولون ، وبقت خالدة الذكر والصوت والصورة في قلوب الناس وفي الوسائل الإعلامية السمعية والبصرية وفي أصوات كل مطربة ناشئة وكل ملحن جديد .

واعتبارا لمكانتها قررنا بالإجماع في المجمع العبي للموسيقى أقامه مهرجان سنوي باسمها يحث فيه المطربات الناشئات على أداء إحدى قطعها وإنتاج قصيد أو أغنية على منهجها الفني ، ولكن فاجأتنا وزارة الثقافة المصرية بالتخلي عن إقامة المهرجان بالقاهرة ونظرا لتقدمنا في توجيه الدعوات وتنظيم العمل الفني أقمناه بتونس وتخلف عنه الوفد المصري لظروف داخلية وأحرزت فيه المطربة الورية "فاتن حناوي (أخت ميادة) على الجائزة الأولى ، وقد تألقت في أداء الأطلال وفازت بالجائزة الثانية الفتاة التونسية " سناء الخسايري " في أداء أنا في انتظارك " واقترحي هو أن يقام مهرجان سنوي باسم كوكب الشرق تتسابق فيه الأصوات النسائية في أداء الأغاني الفنية الممتازة ومهرجان آخر باسم الموسيقار محمد عبد الوهاب يتسابق في المغنون الشبان ومهرجان ثالث باسم الرواد القصبجي وزكريا والسنباطي) في تلحين الأغاني والقصائد الفنية الأصلية مع اشتراط الابتكار في المقامات والايقاعات، ومهرجان أخير لانتاج الموشحات باسم أستاذ الجميع الشيخ درويش الحريري على أن نخصص كل سنة بنوع من هذا الإنتاج .

كيف أصبحت رائدة الغناء العربي

لقد كانت السيدة أم كلثوم مؤهلة لتتال هذا العنوان من بدايتها حيث منحها الله عز وجل صوتا قويا يسمع الجماهير العريضة وذا رقة تعبر عنها الزخارف الفنية التي تنبعث عفوية حتى تصبح الجملة ذات الدرجات القليلة قد تفرغت وأنتجت عدة نبرات صوتية تكسبها جمالا وروعة تتأثر بها المطربة وتؤثر في مستمعها الذي تعلقوا بها تلق الروح بالجسد كما منحها المولى قوى وصبرا للتفاعل مع الطرب فتتسى مشاغل الدنيا وتتسجم مع فنها ومع تجاوب الجماهير لها لتعطي أعز ما عندها ساعات وساعات وهي واقفه مثل الشمعة تفرح بذوبانها لتتير ما حولها وتسعد الآخرين .

وقد تمكنت من خدمة هذه الصوت فأثرته بالتدريب على جميع المقامات في مختلف الطبقت الصوتية وعلى قدرة التصرف والارتجال لتتمي كل قطعة تؤديها فتوسع نطاقها وتتمق جملها وإذا هي تستغرق خمسة أضعاف زمانها بتأثير عميق على المستمعين الذي يواضبوا على جميع

غروضها ومما يلاحظ أنها -رحمها الله تَعُودت منذ شبابها على الأداء الجمهوري الذي لا يحتاج إلى ايه وسيلة لإبرازه وما استعمالها لمضخم الصوت إلا لأحداث التناسق بني قوة صوتها وأصوات جملة الآلات التي ترافقها

دفاعها عن الموسيقى العربية

كتب الأستاذان خليل المصري ومحمود كامل أن السيدة أم كلثوم عندما انخبت مقرررة اللجنة النشاط الموسيقى بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون الآداب سنة 1959 طالبت باصرار تخصيص نصف الاعتمادات المالية المعينة للموسيقى في أجهزة الدولة للموسيقى العربية ، ورفضت أن تستمر اللجنة في مهمتها إلى أن يتحقق الطلب .

وحيثما أحست في شهر أبريل من سنة 1962 بان هنالك اتجاها من بعض الرسميين بعدم الاهتمام بالموسيقى العربية دعت إلى عقد عدة اجتماعات في دارها وفي معهد الموسيقى وأعدت مذرة بالمالب التي تؤدي إلى الارتقاء بموسيقانا العربية وقدمتها للسيد وزير الثقافة وفي سنة 1964 زرت القاهرة لعقد جلسات بجامعة الدول العربية قصد التفكير في إنجاز تأسيس المجمع العربي للموسيقى، وأثناء مقامي زرت المعهد العالي للموسيقى العربية واستمعت لسماع غزف موسيقى من المسؤولين عنه ومن بينهم الأستاذ محمد القصبجي كما زرت معهد الكونسرفتوار فإذا بي أفاجأ بأن مديره ايطالي يمن على بتفضله بفتح قسم لآلة القانون خدمة للموسيقى الغربية فتألمت لذلك وطلبت من صديقي الدكتور محمود أحمد الحفني أن يساعدي لزيارة معالي وزير الثقافة لإثارة هذه الكارثة ف بلد قلب العروبة ، وعند زيارته أعرب سيادة الوزير بقوله أنه كثيرا ما يستمع للموسيقى الغربية الكلاسيكية في مكتبه فتخلت عن مفاتحته في الأمر وغيرت طريقة العمل حيث أقتعت السيد محمد بن يحيى وزير الإعلام و الثقافة الجزائري بإقامة مهرجان كبير للموسيقى العربية بالجزائر لدعم الهوية الجزائرية بعد نيل الاستقلال حديثا، فتوسع إلى البلدان الإسلامية وكان مهرجانا رائعا في السنة الموالية دعيت إليه مصر ولولا الدكتور رتبية الحفني التي شكلت فرقة من تلاميذ معهدا كانت مصر غائبة عن ساحة العروبة وقد سجلت جميع فعاليات المهرجان وهي للآن شاهد على مستواه .

وهذا ما دعا الصديق الأستاذ أحمد شفيق أبو عوف إلى العمل على الإسراع بتأسيس فرقة الموسيقى العربية وجلب الأستاذ عبد الحليم نويرة لقيادتها .

وفي سنة 1966 حضر الأستاذ حسين فوزي ممثلا لمصر في مؤتمر موسيقى بمنظمة اليونسكو فيذكر أن عناية مصر تتجه للموسيقى الكلاسيكية الغربية وان الموسيقى العربية سوف تبقى دلى مجودي القرآن ومن سوء حظه أن المؤتمر كان مخصصا للعناية بالموسيقى الحديثة على حساب الكلاسيكية فقول بالغضب والتشويش فتلافيت الأمر وبينت أن مصر عربية وسوف تبقى عربية وقدمت الشكر لهيئاتها الثقافية على تأسيس فرقة للموسيقى العربية تقدم حفلات دورية

ويعد ذلك رشحت الصديق الأستاذ رياض السنباطي لنيل الجائزة العالمية للموسيقى باليونسكو وعند قبول هذا الترشيح أبرقت لكل من الأستاذين أحمد شفيق أبو عوف ومدحت عاصم بوصفه رئيس اللجنة الوطنية المصرية للموسيقى وإذا هو يبرق للمجلس الدولي للموسيقى محتجا على الترشيح قائلا أنه فنان ذا إنتاج محلي محدود وحضر في السنة الموالية واستلم الجائزة التي كانت كأسا رثاعمن الكريستال بمدينة براتيلافا نيابة عن الأستاذ رياض الذي لم تصل إليه وقد شاء الله ان تلقي الموسيقى العربية حظها الوافر بمصر وتقام لها المهرجانات العديدة وما إقامة هذه الذكرى الخالدة إلا دليلا قاطعا على استمرار تداول هذه الموسيقى جيلا بعد جيلا ويبقى صوت السيدة أم كلثوم رائدة الموسيقى العربية يصدح عبر الوسائل السمعية البصرية وعبر الأجيال من الفنانات والفنانين الذين يتخذونها قدوة لهم لضمان النجاح وترسيخ الهوية .

والله الموفق

د . صالح المهدي